

بيضة الصيف هداي بن نفاع القرشي



يعاني سكان المنطقة العربية اليوم من وطأة الحر وبوارح القيظ، والموجات الحرارية الصيفية، واشتعال الرمال الذي أوقدت الشمس فيه نارها، وأذكت أوارها -ولقد من الله علينا بما قدمته لنا البشرية من آلات وأجهزة التبريد ومصانع الثلج - فحر بيضة الصيف وغرته مازالت تلفح الوجه فتنتج الجلود وتصهر الأجسام، والشمس تقتل بحرها ورمضانها من يتعرض للمشي.

وقدكان العرب في الصيف قديما ينزلون على الماء ولايفارقونه ولا يخافون أن يغزوا لشدة الحر لبعده تلك الصحارى حتى إذ ذهب انتجعوا.

وَزَعَمُوا أَنِ الْعَرَبَ كَانُوا يَمْلَأُونَ بَيْضَ النَّعَامِ مَاءً فِي الشَّتَاءِ، وَيَذْفَنُونَهَا فِي الْمَلَوَاتِ الْبَعِيدَةِ مِنَ الْمَاءِ، فَإِذَا سَلَكُوهَا فِي الْقَيْظِ اسْتَنَازُوا الْبَيْضَ، وَشَرِبُوا مَا فِيهَا مِنَ الْمَاءِ.

وقد قيل لأعرابي: كيف تصنعون بالبادية إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله؟ قال: وهل العيش إلا ذلك، يمشي أحدنا ميلا ليرفض عرقا، ثم ينصب عصاه، ويلقي عليها كساه، ويجلس في قبة يكتال الريح، فكأنه في إيوان كسرى، ويروى أنهم يضعون الأغصية على الشجر فتكون ظلا ومنزلا لهم.

وقد قالت العرب في الصيف (لا يطيب معه عيش ولا ينفع معه ثلج ولا خيش) فما هو الخيش؟ يحدثنا الطبري وياقوت في معجم الأدباء أنه كانت عادة الأكاسرة أن يطين سقف بيت في كل يوم صائف فتكون قيلوللة الملك فيه وكان يؤتي بأطباق الخلاف (وهو صنف من الصفصاف طولا فتوضع حول البيت ويؤتي بقطع الثلج الكبار فتوضع ما بين أضعافها. وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً؛ ولكن في عهد المنصور العباسي اتخذت طريقة أخرى للتبريد فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرد.

وفي العصور المتأخرة قبل الثورة الصناعية فقد كان الناس ينامون فوق الأسطح وأعلى المنازل يبلون الفرش وينشرون الأغصية طلبا لبرودة المكان ولا ينامون تحت سقف، ولقد صبر الإنسان العربي على قسوة محيطه ولم يتضرر من عنف الحياة فيه، بل خلق من سيئاته حسنات، وكان سلاحه الصبر والإرادة.

اللهم ارحمنا من حر يوم القيامة، واجعلنا في ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك.

هداي بن نفاع القرشي